كارلوس زافون

ظل الريح

نسخة منقحة
Telegram Network

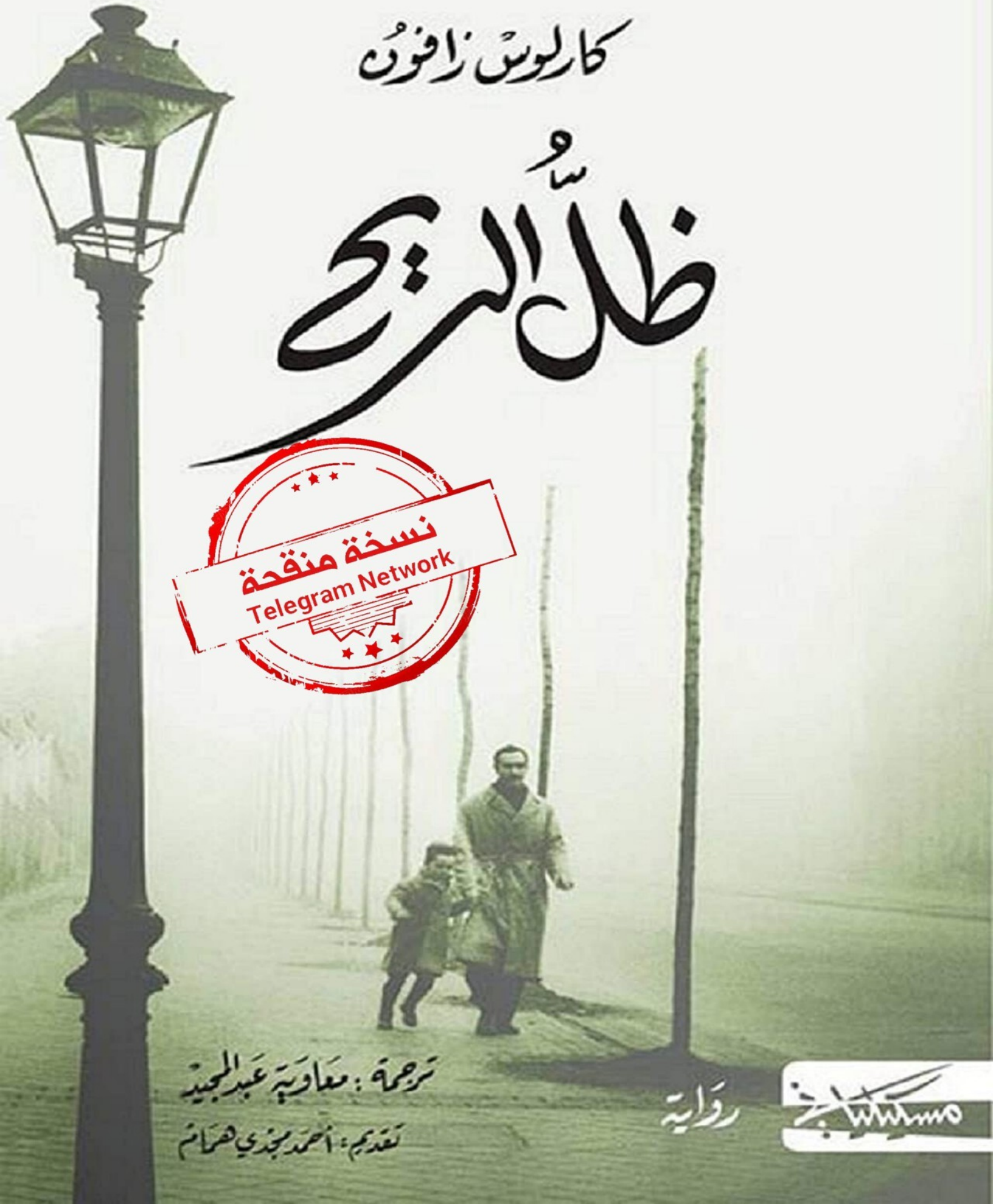

ترجمة : معاوية عبد المجيد

تقديم : أحمد مجدي همام

رواية

مسكيلياني

كارلوس زافون
ظل الريح
نسخة منقحة
Telegram Network
ترجمة : معاوية عبد المجيد
تقديم : أحمد مجدي همام
رواية
مسكيلياني

https://linktr.ee/books4ar

كارلوس زافون: ظل الريح، رواية

كارلوس زافون

ظل الريح

رواية

ترجمة: معاوية عبد المجيد

منشورات الجمل

كارلوس زافون: **ظل الريح**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: معاوية عبد المجيد
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفزظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد 2016
تلفون وفاكس: 353304 1 00961
ص.ب: 5438/113 – بيروت – لبنان

LA SOMBRA DEL VIENTO :Carlos Ruiz Zafón
Carlos Ruiz Zafón 2001 ©

2016 *Al-Kamel Verlag* ©
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. – Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى خوان رامون بلاناس

خوان الذي يستحق شيئًا أفضل من هذا بكثير

مقبرة الكتب المنسية

لن أنسى أبدًا ذلك الصباح الذي اقتادني فيه والدي إلى «مقبرة الكتب المنسية». حدث الأمرُ في أوائل صيف العام 1945. كنا نمشي في شوارع برشلونة التي ادلهمّت فوقها سماواتٌ من رماد، وانصبّت الشمسُ من بين الضباب مثل إكليل نحاسيٍّ سائلٍ على حيّ رامبلا دي سانتا مونيكا.

«إياك أن تخبر أحدًا بما ستراه اليوم يا دانيال» قال والدي. «حتى لو كان صديقك توماس.»

«ألا أخبر أمي أيضا؟» سألته هامسًا.

تنهّد والدي، وارتدى قناع الابتسامة الأليمة التي كانت تتبعه كظّله في الحياة.

«بالتأكيد» أجابني مُطأطَأ الرأس. «ليس لدينا أسرار نخفيها عن أمك يا دانيال. بوسعك أن تخبرها بكل شيء.»

ما إن وضعت الحرب الأهلية أوزارها حتى اجتاحت الكوليرا البلادَ وسلبت منّا والدتي. دفنّاها في مونتويك، تحت وابل من المطر، ما انقطع ليل نهار، في ذات اليوم الذي أتممت فيه عامي الرابع. لن أنسى كيف ضاقت أنفاس والدي عندما سألته عمّا إذا كانت السماء تبكي رحيل والدتي. وبعد ستة أعوام مازال غيابها حاضرًا بقوة كصرخة خرساء مدوية، كفراغ تعجز الكلمات عن غمره. كنا، أنا ووالدي، نسكن في شقة صغيرة في زقاق سانتا آنا، قرب ساحة الكنيسة، فوق مكتبة جدّي المتخصصة في بيع الكتب النادرة والمستعملة. كانت المكتبة أشبه بِبَازارٍ سحري سيصبح ملكي في يوم من الأيّام، كما كان أبي يكرّر دائما. لقد نشأت بين الكتب، وبصحبة أصدقاء خياليين يسكنون صفحات الكتب الذابلة ذات الرائحة الاستثنائية. وعندما كنت صغيرًا، كنت أروي لوالدتي، قبل أن أغفو، ما أتعلّمه في المدرسة والطريقة التي تجري بها الأمور أثناء النهار. لم يكن بوسعي سماع صوتها أو تحسس لمسات يديها، لكن النور الذي يشع من طيب ذكراها كان يُدفئ كل أركان البيت. وكنت واثقًا من أنها سوف تسمعني، أينما كانت، ما إن أغمض عينيّ وأتكلم معها. كنت على إيمان بهذا كأي طفل مازال يعدّ أعوامه على أصابع يديه. وكان والدي، في بعض الأحيان، يسمعني وهو جالس في الصالة ويبكي في سرّه.

أذكر أنني استيقظت وأنا أصرخ في ذلك الصباح من شهر يونيو. كان قلبي ينبض كأنما أراد أن يفتح ممرا في صدري ليهرب منه. هرع والدي فزعا نحو غرفتي وضمّني بين ذراعيه كي يُهدِّئ من روعي.

«لم أعد أذكر وجه أمي. لم أعد أذكر وجه أمي» قلت بما تبقّى لي من صوت.

ضمّني والدي إليه بشدة أكثر.

«لا تقلق يا دانيال. أنا سأذكر وجهها نيابة عنّي وعنك.»

نظر كلٌ منا في وجه الآخر، تحت ظلٍ ممتدّ بين الفجر والغسق، ونحن نبحث عن كلمات لا وجود لها. فلاحظت للمرة الأولى أنّ والدي يشيخ وأنّ عينيه الكئيبتين تركّزان صوب الماضي. نهض على قدميه وحرّك الستار كي يدخل ضوء الفجر الفاتر.

«قم يا دانيال وارتد ثيابك. أودّ أن أطلعك على شيء ما».

«الآن؟ في الخامسة فجرا؟»

«ثمَّت أشياء لا نستطيع رؤيتها إلاّ في الظلام» أجابني وافتعل ابتسامة غامضة لابدّ أنه استعارها من إحدى روايات دوماس.

كان الشارع خاليًا من أي صوت عدا خطوات عناصر الشرطة الليلية. وكانت أعمدة الإنارة في لاس رامبلاس تخفت شيئا فشيئا بالتوازي مع استيقاظ المدينة بكسل وهي تتأهب لخلع قناع الألوان الشاحبة. وعند مدخل أركو دل تياترو اتجهنا نحو الرافال تحت الأقواس الغارقة في الضباب، ومشينا في ذلك الدرب الذي يشبه الجرح. وما إن ابتعدنا عن أنوار لاس رامبلاس حتى بدأ الفجر ينير شرفات المنازل وتيجان المباني. توقف والدي عند بوابة خشبية ضخمة ومنقوشة بانت عليها آثار الرطوبة والزمان. فظَهَر قبالتنا ما بدا لي جثة بناء مهجور، أو ضريحًا لأصداء وظلال بعيدة.

«إياك أن تخبر أحدًا بما ستراه اليوم يا دانيال. حتى لو كان صديقك توماس.»

فتح لنا البوابة رجل له وجهُ طيرٍ جارح وشَعرٌ فضيٌّ. رمقني بنظرة لم يحدْها عني قيد أنملة.

«صباح الخير يا إسحاق. هذا ابني دانيال» قال له والدي. «سيُتمّ عامه الحادي عشر عمّا قريب، وسوف يتولى شؤون المكتبة يوما ما. أرى أن سنّه مناسبة للتعرف إلى هذا المكان.»

دعانا إسحاق للدخول بهزّة خفيفة من رأسه. كانت الردهة مسكونة بظلّ لازوردي يتمايل بين النور والظلمة، ومن هناك تظهر أدراج رخامية وممر عميق يزدهي سقفه برسومات لوجوه ملائكة وكائنات خيالية. لحقنا بالحارس إلى أن وصلنا إلى صالة دائرية تشرف عليها قبة تنهمر منها لآلئ الضوء. كان البناء كمعبد غارق في ظلام دامس، متاهة من الأروقة والرفوف العالية المكتظة بالكتب، خليّة نحل هائلة مشيدة من أنفاق وسلالم ومنصات ودعائم: مكتبة ضخمة معجزة في هندستها وبنيانها. نظرت إلى أبي وفمي مفتوح من شدة الذهول بينما كان يبتسم ويغمز.

«أهلا بك في مقبرة الكتب المنسية يا دانيال.»

لاحظت وجود عشرات من الأشخاص على منصات المكتبة ودعائمها. التفت بعضهم إلينا لإلقاء التحية، فعرفت بعض زملاء والدي: بائعو كتب وأثريّات مثله. بدوا لمخيلتي البريئة حينها كأنهم جماعة سرية من الخيميائيين يتآمرون على شيء مّا في غفلة من العالم. انحنى والدي نحوي ونظر في عينيّ، وحدّثني بنبرة راقية تصلح لإطلاق الوعود وتمتين الثقة بين الأشراف.

«هذا المكان سرّ يا دانيال، إنه معبدٌ، حَرَمٌ خفيّ. كل كتاب أو مجلد هنا تعيش فيه روحٌ مّا. روح من ألّفه وأرواح من قرؤوه وأرواح من عاشوا وحلموا بفضله. وفي كلّ مرة يغيّر الكتابُ صاحبه، أو تلمس نظراتٌ جديدة صفحاته، تستحوذ الروح على قوة إضافية. عندما جاء بي والدي

إلى هنا للمرة الأولى منذ سنوات بعيدة، كان هذا المكان قديما مثلما تراه الآن تماما، ربما كان أقدم شيء في المدينة. لا أحد يعلم بدقة كم عمر هذه المكتبة أو من الذي بناها. وكلّ ما يسعني قوله لك هو أن أكرر على مسامعك ما قاله لي والدي: عندما تغلق إحدى المكتبات أبوابها أو تتلاشى، ويضيع كتابٌ مّا في غياهب النسيان، نحن، الأمناء على هذا المكان، نجد له طريقة كي يصل إلى هنا. كل الكتب التي لا يذكرها أحد، أو التي يختفي أثرها بفعل الزمن، تعيش هنا أبدا في انتظار اليوم الذي تعود فيه إلى يدي قارئ جديد، وروح جديدة. نحن نبيع الكتب ونشتريها ولكنها في الحقيقة لا تنتمي إلينا أبدا. كل كتاب هنا كان أفضل صديق لشخص مّا. أمّا الآن فليس لهم غيرنا يا دانيال. هل ترى أنك قادر على كتمان السر؟»

تاهت نظراتي في زوايا ذلك المكان الشاسع وفي سحر أنواره الخارق. أومأت بالقبول فابتسم والدي.

»وهل تعلم أجمل ما في الأمر؟«

هززت رأسي بصمت.

«جرت العادة على أنّ من يأتي إلى هنا للمرة الأولى عليه أن يختار كتابًا ويتبنّاه ويجتهد في الحفاظ عليه دائما فيبقى حيا. إنه عهد في غاية الأهمية» شرح والدي. «واليوم حان دورك.»

تجولت في تلك المتاهة واستنشقت عبق الصفحات القديمة والسحر والغبار لنصف ساعة. وتركت يدي تلامس ظهر الكتب المرتبة في صفوف طويلة، متكلًا في خياري على حاسة اللمس. رأيت كلمات في لغات أعرفها وأخرى في لغات لم أستطع حتى أن أميزها، بين عناوين باتت لا تُقرأ وأخرى بهت حبرها. رحت أنتقل بين الرفوف والأروقة التي تحتوي على مئات بل آلاف المجلدات التي تشعرني بأنها تعرف عني أكثر مما أعرف عنها. ولمع في رأسي أن كل غلاف يخفي وراءه عالمًا لا نهاية له، عالما يحفّز النفس على استكشافه، بينما يُهدر الناس في الخارج أوقاتهم بمتابعة مباريات كرة القدم والمسلسلات على الراديو وينفقون المال على جهلهم أيضا. لست أدري إن كان الأمر يتعلق بتلك التأملات، أم بالصدفة أم بأبيها النبيل (القدر)، ولكنني في تلك اللحظة كنت على يقين بأنني وجدت الكتاب الذي سأتبنّاه، أو بالأحرى الكتاب الذي سيتبنّاني. كان خجولا بظهوره من أحد الرفوف، غلافه من جلد قرمزي، والعنوان مطبوع على ظهره بحروف مطرزة. تلمست تلك الكلمات برؤوس أصابعي وقرأتها بصمت.

خوليان كاراكس

ظلّ الريح

لم أكن أعرف الكتاب ولا المؤلف، ولم يكن هذا يهمني. كان القرار حاسمًا، من كِلا الطرفين. أخذت الكتاب وتصفحته بحذر، إذ كانت صفحاته ترتجف كجناحي فراشة استردت حريتها، أو كسحابة من غبار ذهبي خرجت للتوّ من السجن. أرضاني الخيار فعدت على نفس الخطى التي أدخلتني في تلك المتاهة، والكتاب تحت إبطي وابتسامتي ترقص على شفتيّ. ولعلّني سكرت من جوّ المكتبة الساحر، لكنني كدت أجزم أن ذلك الكتاب كان ينتظرني منذ أعوام، وأغلب الظن من قبل أن أولد.

في عصر ذلك اليوم، بعد عودتنا إلى البيت، انعزلت في غرفتي كي أتعرّف إلى صديقي الجديد. جذبتني القصة بأسرع مما توقعت: قصة رجل يبحث عن أبيه الحقيقي بعد أن عرف أنه موجود بفضل أمه التي أخبرته بذلك قبيل وفاتها بلحظات. وسرعان ما تتحول القصة إلى ملحمة معقدة: البطل يناضل بحثًا عن طفولته الضائعة وشبابه المفقود حيث تتجلى شيئا فشيئا ظلال حب ملعون تلاحقه حتى آخر يوم من عمره. أمّا بنية الرواية فقد ذكّرتني بالدمية الروسية التي تحتوي على عدد لا يحصى من الدمى المتشابهة. والسرد متشظٍّ إلى ألف حكاية، وكأن القصة تدخل في معرض للمرايا فتنقسم إلى عشرات الانعكاسات، ولكنّها تظلّ مُحافظةً رغم ذلك على وحدة بنيتها. شدّتني الرواية، ومرّ الوقت بسرعة كما يمرّ الحلم. فلم أنتبه إلاّ لأجراس منتصف اللّيل بعد عدة ساعات وهي تتناهى إلى مسامعي من نواقيس الكاتدرائية في البعيد. صفحة وراء صفحة، تحت نور نحاسي يرسله القنديل، كنت أستسلم لدوامة من المشاعر المبهمة، وأغوص في عالم عجيب تسكنه شخصيات أكثر واقعية من الهواء الذي أتنفسه. تركت نفسي تنصاع لذلك الإغراء حتى بللتْ نسائمُ الفجر زجاج النافذة واستقرت عيناي المتعبتان على الصفحة الأخيرة. حينها فقط استلقيت على السرير، واستلقى الكتاب على صدري، فسمعت أصوات المدينة الغافية ترتفع فوق السقوف المزوقة بالأرجوان. دقّ النعاس والأرق على بابي مرارا لكنني قاومت، لأنني لم أشأ أن أقطع سيل تلك الحكاية الساحرة ولا أن أودّع شخصياتها الفريدة.

ذات يوم كان أحد زبائن المكتبة يقول: «لا شيء قادر على التأثير في القارئ أكثر من الكتاب الأول الذي يمس قلبه حقًا. إذ أن صدى الكلمات التي نظن بأننا نسيناها يرافقنا طوال الحياة، ويشيد في ذاكرتنا منزلًا سنعود إليه عاجلا أم آجلا. لا يهمّ حشد الكتب الأخرى التي سوف نقرؤها، ولا عدد العوالم التي سوف نكتشفها، ولا حتى مقدار الأمور التي سوف نتعلمها ثم ننساها». أمّا بالنسبة إليّ، فسيبقى ذلك هو الكتاب الذي أنقذته من ظلمات مقبرة الكتب المنسية.

أيام الرماد
1945-1949

1

يُقاس حجم السرّ بقيمة الشخص الذي نخفيه عنه، لذلك اجتاحتني حالما استيقظت رغبة عارمة في الذهاب إلى صديقي المفضل وإطلاعه على وجود مقبرة للكتب المنسية.. كان توماس آغويلار رفيقي في المدرسة، يستنفد كل ذكائه ووقته الضائع باختراع أدوات لا قيمة عملية لها كالرمح المتوازن أو محرك الدوارة الخشبية. لمن كنت سأبوح بذلك السر إن لم يكن لتوماس؟ رأيت في حلم اليقظة أننا، أنا وهو، نحمل مصباحًا وبوصلة وقد قررنا استكشاف خفايا ذلك السرداب المليء بالكتب. لكنني قررت أن أكون وفيا لعهدي، وأن أتّبع ما يسمّى في الروايات البوليسية بـ {modus operandi} أي أن أحقق في الموضوع مليّا. فعندما حانت الثانية عشرة ظهرا، نزلت إلى المحل كي أسأل أبي عن بعض المعلومات عن الكتاب وخوليان كاراكس، وقد ظننت أنه كاتب مشهور في العالم أجمع. كنت أرغب في الحصول على أعماله الأخرى كي أقرأها كلها في غضون أسبوع. ولذا فوجئت بأن أبي، وهو بائع الكتب الخبير والمطّلع على لوائح النشر، لم يسمع يوما بالكاتب ولا بـ «ظل الريح». راح يتفحص زاوية الناشر بعد أن اعتراه الفضول.

«على ما يبدو أنها واحدة من الألفين وخمسمائة نسخة التي أصدرتها دار كابيستاني للنشر في برشلونة في ديسمبر عام 1935.»

«وهل تعرف دار النشر هذه؟»

«لقد أغلقت منذ عدة سنوات. لكن هذه ليست بالطبعة الأصلية، فتلك قد صدرت في باريس في نوفمبر من العام نفسه عن دار النشر غاليانو ونيوفال. ثمَّت شيء غير مفهوم.»

«هل هي نسخة مترجمة إذن؟» سألت حائرًا.

«ليس مذكورا هنا أنها مترجمة. ولا يبدو أنها كذلك للوهلة الأولى.»

«أليس غريبا أن تكون الرواية مكتوبة بالإسبانية وتصدر طبعتها الأولى في فرنسا؟»

«لم لا؟ لقد حصل هذا أكثر من مرة في الماضي نظرًا إلى مصاعب عديدة» أكد والدي. «لعلّ بوسع برسلوه أن يساعدنا.»

كان جوستابو برسلوه صاحب مكتبة عتيقة في شارع فرناندو. له كاريزما تمنحه لقب زعيم باعة الكتب القديمة والنادرة بلا منازع. ودائما ما كان الغليون المطفَأ، الذي تفوح منه أزكى النكهات الشرقية، يتدلى من شفتيه. ويفضّل أن يعرّف نفسه بالرومانسيّ الأخير ويتباهى بأنه من نسل الشاعر اللورد بايرون رغم أنّ أصوله تنحدر من كالداس دي مونتبوي. ولعلّه كان يرتدي زيّ الداندي الرائج في القرن التاسع عشر كي يبرر نسبه البريطاني: إذ كان يختال بشال حريري وحذاء مُلمَّع بالطلاء الأبيض ونظارة مفردة لا معنى لها، أشاعت الأقاويل بأنه لا ينزعها حتى لو ذهب إلى الخلاء. وفي الواقع فإن والده هو القريب الوحيد ذو الشأن الكبير إذ كان صاحب مصنع وقد بلغ الثراءَ بوسائل شبه مشروعة في نهاية القرن السابق. قال لي أبي إنّ بوسع جوستابو برسلوه أن

يعيش برفاهية دون أن يعمل شيئا فالمكتبة بالنسبة إليه مجرد تسلية لقضاء الوقت. كان شغوفًا بالكتب أكثر من شغفه بالحياة. يقال عنه، رغم نفيه لذلك مرارًا، إنه لو دخل أحد الزبائن محله وكان مولعًا بكتاب لا يقوى على شرائه، فإنّ برسلوه يخفض السعر حتى يستطيع الزبون أن يحصل على مراده، بل وربما يُهديه إياه حالما يشعر بأنه قارئ حقيقي وليس هاويًا أو دعيًّا. كما كان يحظى بذاكرة فيل، وادعاء بالمعرفة لا يطاق. ولكنه في اختصاصه كان مرجعًا موثوقا عن أي تساؤل.

بعد أن أغلقنا المحل في عصر ذلك اليوم، اقترح عليّ والدي أن نمرّ بمقهى إلس كواتري غاتس، في حيّ مونتسيو، حيث يجتمع برسلوه ومريدوه ليتناقشوا في شأن الشعراء الخائبين واللغات الميتة وروائع الفن المهملة أمام فيالق العث.

كان المقهى قريبًا من بيتنا مسافة خطوتين وهو أكثر الأماكن المحببة إلى قلبي في برشلونة. فهناك، تعرّف أبي على أمي عام 1932، وأنا كنت أعزو حياتي، في جزء كبير منها، إلى فتنة ذلك المقهى القديم. يحرس تنيّنان حجريان واجهته المخفية في تعاقب مستمر للظلال، وتجمّد قناديلُ الغاز الوقتَ والذكريات. والجو في الداخل يوحي بزمان آخر: محاسبون وحالمون وطلاب طموحون يجلسون على الطاولات بصحبة طيف بابلو بيكاسو وإسحاق ألبينيز وفيديريكو غارثيا لوركا وسلفادور دالي. حتّى الشحاذون أنفسهم بوسعهم أن يشعروا في ذلك المحلّ بأنهم أبطال التاريخ، طالما كان سعر القهوة في غاية الزهد.

«ها قد عاد سيمبيري، الابن الضال» هتف برسلوه وهو يرى أبي يدخل المقهى. «تُرى ما الذي شرّفنا بمجيئك؟»

«الفضل لابني دانيال يا دون جوستابو. لقد اكتشف لتوه كنزا ثمينا.»

«جيد. تفضّلا بالجلوس. لا يسعنا إلا أن نحتفل بهذا الحدث التاريخي.»

«حدثٌ تاريخي؟» همست في أذن والدي.

«السيد برسلوه يحبّ استخدام العبارات البليغة» أجابني أبي بصوت منخفض. «تظاهرْ بأنك لم تسمع شيئا وإلا اغتاظ منا.»

وسّع تلاميذه لنا الجلسة بينما أصر برسلوه على أن يعرض شيئا نشربه وهو الذي كان متمسكا بإظهار جوده وسخائه.

«كم عمر ولي العهد؟» سأل برسلوه بنبرة ممازحة.

«أحد عشر عاما تقريبا» صارحته.

فابتسم مستهزئًا. «يعني عشرة أعوام. لا تزدْ في سنك أيها الطفل، ستتكفل الحياة بهذا لاحقا.»

بانت على الحاضرين علامات الاستحسان. ونادى برسلوه النادل الذي كان عجوزا إلى درجةٍ تجعلك تظنّه نصبًا أثريا.

«اجلبْ لصديقي سيمبيري كأس كونياك فاخر، وللفتى كأس فرابيه فهو ما يزال صغيرا. واجلب أيضًا طبقا منوعا من اللحوم المقددة، ولكن ليس كهذا الذي أتيتنا به منذ قليل. واضح؟ لو كنا نرغب في تناول المطاط لذهبنا إلى شركة بيريللي للعجلات» استشاط بائع الكتب غيظا.

أومأ النادل برأسه واتجه نحو المطبخ وهو يسحل قدميه.

«كيف يمكن للمرء أن يجد عملا في هذا البلد إن كانوا لا يفكّرون حتّى في تسريح الأموات من أعمالهم؟» علّق برسلوه. «انظرْ إلى هذا المسنّ الغابر. يا لها من معضلة.»

مصّ من الغليون المطفَأ بينما كان يصّوب أنظاره الثاقبة كالصقر على الكتاب الذي أحمله بيدي. فعلى الرغم من حركاته الهزلية كان برسلوه يطارد فريسته بمهارة كما يشتمّ الذئب رائحة الدماء.

«تُرى بم أتيتموني؟» قال متصنعا عدم الاهتمام.

رمقت والدي فأومأ موافقًا. أعطيت الكتاب لبرسلوه دون تردد، فأمسكه بائع الكتب بيدين خبيرتين وراحت أصابعه التي اعتادت على عزف البيانو، تنزلق على الغلاف لتقيّم سماكته وصحته. ثم نظر إلى زاوية الناشر بعناية بوليسية وابتسامة محايدة حوالي دقيقة كاملة. وكان الحاضرون ينظرون إليه بترقب، كمن ينتظر معجزة أو الإذن بالتقاط الأنفاس.

«كاراكس. مهم جدا.»

مددت يدي لأستعيد الكتاب، فقوّس حاجبيه وأعطاني إياه بابتسامة فاترة.

«أين عثرت عليه أيها الفتى؟»

«إنه سرّ» أجبته وقد رأيت أبي يرسم على شفتيه ابتسامة ماكرة.

قطّب برسلوه جبينه ونظر إلى والدي.

«عزيزي سيمبيري. بما أنني أحترمك للغاية وبما أننا أصدقاء حتى الأخوّة، سأعطيك مائتي بيزيتا ونغلق الموضوع.»

«ينبغي أن يتم الاتفاق مع ابني» أكد والدي «فالكتاب كتابه.»

التفت برسلوه إليّ بابتسامة خبيثة. «ما رأيك يا فتى؟ مائتا بيزيتا رقم جيد جدا تفتتح به نشاطك التجاري... إنّ ابنك سوف يضارب عليك يا سيمبيري.»

ضحك الحاضرون، ونظر إليّ برسلوه بارتياح وأخرج محفظة الجلد من جيبه. أخذ يعدّ المال، مائتا بيزيتا في تلك الحقبة كانت مبلغا ضخما. أعطاني الأوراق المالية، فاقتصرت على الرفض بهزّ رأسي فتفاجأ برسلوه من جديد.

«تذكّرْ أن الطمع من المحرمات الكبرى» أضاف. «ثلاثمائة هيا. بوسعك أن تفتح حسابا في مصرف التوفير. على المرء في عمرك أن يبدأ التفكير في المستقبل.»

هززت برأسي ثانية فنظر برسلوه إلى والدي والشرر يقدح من النظارة المفردة.

«لا تنظرْ إليّ هكذا» قال له. «إنني هنا بصفة مرافق فقط.»

تنهد برسلوه بعمق ونظر إلي متفحصًا.

«حسنا، قل لي ما الذي تريده يا صغيري؟»

«أريد أن أعرف من هو خوليان كاراكس وأين بوسعي العثور على أعماله الأخرى.»

أرجع برسلوه المحفظة إلى جيبه وأعاد الاعتبار بخصمه حينها.

«تبًا. يوجد بيننا بروفسور إذن. ماذا تطعم ابنك يا سيمبيري؟» قال.

انحنى بائع الكتب نحوي ورأيت في عينيه نظرة احترام لم أرها من قبل.

«فلنبرم اتفاقًا» قال لي. «غدا، يوم الأحد، تعال إلى مكتبة الجامعة واسأل عني. واحمل معك الكتاب فهكذا يتسنى لي تفحّصه بشكل أفضل. وسأخبرك بما أعرفه عن خوليان كاراكس. Quid pro quo»

«ماذا؟»

«واحدة بواحدة. إنها اللاتينية أيها الفتى. لا توجد لغات ميتة بل عقول في غيبوبة تامة. بمعنى آخر لا شيء بالمجّان. ولكنني أراك ظريفا وأريد أن أسدي لك معروفا.»

كانت حذلقة ذلك الرجل تؤهله لاصطياد الذباب في الهواء. ومن ناحية أخرى كان عليّ أن أعبّر عن تقديري له إذا ما أردت اكتشاف شيء ما عن خوليان كاراكس. فابتسمت له باحترام متظاهرًا بأنني أبجّل إتقانه المطلق للاتينية.

«لا تنسَ لقاءنا غدا في الجامعة» نوّه برسلوه. «اجلب معك الكتاب، وإلا لن نتمكن من فعل شيء.»

«حسنًا.»

تحولت المحادثة إلى غمغماتٍ راح عشاق الكتب فيها يتناقشون عن بعض الوثائق التي عُثر عليها تحت متحف الإيسكوريال. وبحسبِ هذه الوثائق فإنّ ميغيل دي ثربانتس كان اسمًا أدبيًا مستعارًا لامرأة مشعرة من طليطلة. لم يدلِ برسلوه بدلوه في ذلك الموضوع واقتصر على مراقبتي من خلف نظارته المفردة بابتسامة مرتبكة. أو ربما كان يمعن النظر في الكتاب الذي أحمله بيدي لا غير.

2

في يوم الأحد ذاك، أطبقت على المدينة موجة من القيظ الخانق فارتفعت على إثرها عقارب ميزان الحرارة. دخلت إلى شارع كانودا بعد الظهيرة تحت حرارة تفوق الثلاثين درجة، متأبطا الكتاب وجبيني مرصّع بحبات العرق. كانت الجامعة، وما تزال، مكانًا من أماكن المدينة الكثيرة التي توقّف فيها الزمان عند القرن التاسع عشر. هنالك سلالم حجرية تبدأ من الباحة الداخلية لتفضي إلى شبكة من الممرات وصالات القراءة حيث تبدو السرعة والهاتف وساعات اليد كأنها هلوسات مستقبلية. لم يعر الحارس أي انتباه لقدومي، كأنه كان تمثالا يرتدي بزة رسمية. ثم وصلت إلى الطابق الأول فاستأنست لسماع حفيف شفرات إحدى المراوح وهي تنعش القراء الغافين قبل أن يذوبوا كقطع الجليد على الكتب والجرائد.

وجدت جوستابو برسلوه تحت أقواس الإيوان المطل على الحديقة الداخلية. ورغم ذلك المناخ شبه الاستوائي، فإن بائع الكتب كان بكامل هندامه الأنيق والمعتاد بينما كانت نظارته المفردة تلمع في الظل كعملة حديدية في عمق بئر. وإلى جانبه كانت هنالك امرأة ترتدي فستانًا ناصع البياض حتى بدت لي كأنها ملاك منحوت في الضباب. وحالما سمع برسلوه خطواتي استدار وأشار إليّ بالاقتراب منه.

«دانيال، أليس كذلك؟» سألني. «هل أحضرت الكتاب؟»

هززت برأسي مرتين ثم أجلسني على مقعد بقربه وبقرب رفيقته الغامضة. ولدقيقتين كاملتين لم يقم بشيء سوى ابتسامة مريحة وعدم اكتراث لحضوري. وانقطع الأمل في أن يقدّمني لتلك السيدة التي ترتدي الأبيض، كان يتصرف كأنها ليست موجودة أو كأنّ أحدًا منا لا يراها. فخطفت عيني إليها وأنا أخشى من أن تتقاطع نظرتي بنظراتها التي تحدّق في مكان ما. كانت بشرتُها نقيةً ووجهُها مصقولًا ومُحدَّدًا بدقة، مُحاطًا بشعر كثيف قاتم السواد، ولامعًا كالجمر. لابدّ أن عمرها في العشرين، لكنّ شيئا ما في ملامحها وتصرفاتها، المحبطة كأغصان صفصافة، يعيد إلى الذهن كائنا لا عمر له يتمتع بشباب أبدي مثل دمى المحلات التجارية. كنت أمعن النظر في عنقها الشبيه بعنق الإوزّة، عندما انتبهتُ إلى أن برسلوه يركّز نظره عليّ.

«والآن، هلاّ قلت لي أين عثرت على هذا الكتاب؟» سألني.

«ليتني أستطيع. لقد وعدت والدي أن أحفظ السرّ» أجبته.

«آه فهمت، فهمت. سيمبيري وأسراره» قال برسلوه. «في كلّ الأحوال أدرك الوضع تمامًا. لقد كنت محظوظا أيها الفتى. لابدّ أنّ مقولة «وجد الإبرة في كومة التبن» مُحقّة إذن. هل لي بالكتاب؟»

أعطيته إياه فأخذه بين يديه بعناية دقيقة.

«أعتقد أنك قرأته. أليس كذلك؟»

«أجل يا سيدي.»

«كم أحسدك يا فتى. لطالما فكرت أنّ اللحظة المناسبة لقراءة كتاب لكاراكس تحين عندما يكون قلب المرء صافيًا وأيام العمر كلها أمامه. هل تعلم أنّ هذه هي الرواية الأخيرة التي كتبها؟»

هززت رأسي نافيًا بصمت.

«وهل تعلم كم نسخة مثل هذه توجد في السوق يا دانيال؟»

«أظن أنها بالآلاف.»

«ولا واحدة» أوضح برسلوه. «باستثناء نسختك. كل النسخ الأخرى تعرضت للحرق.»

«تعرضت للحرق؟!»

ابتسم برسلوه دون أن يجيب وهو يتصفح الكتاب ويتلمّس الصفحات كأنها من حرير نادر في الكون كله. التفتت المرأة البيضاء بهدوء. كانت شفتاها مواربتين على ابتسامة مُفعمة بالخجل

والحيرة. أمّا عيناها اللتان تلتحفان بجفنين من مرمر، فقد كانتا تطوفان في الفراغ. جحظت عيناىَ وابتلعتُ ريقي. إنها عمياء.

«لم أعرّفك بعد إلى قريبتي كلارا. أليس كذلك؟» سألني برسلوه.

أومأت بالنفي ولم أستطع أن أزيح نظري عن ذلك المخلوق الذي يشبه الدمية وعينيها البيضاويين، أكثر عينين حزنا رأيتهما في حياتي.

«في الحقيقة إنّ كلارا هي الخبيرة بخوليان كاراكس، ولهذا دعوتها للمجيء إلى هنا» قال برسلوه. «بل وإنني أستأذنكما بالذهاب إلى القاعة الأخرى لكي أتفحص الكتاب جيدا بينما تتحدثان في أموركما. هل أنت موافق؟»

نظرت إليه مشدوهًا بينما ربّت ذلك القرصان العجوز على كتفي واختفى والكتاب بين يديه.

«هل تعلم أنه معجب بك جدًا؟» سمعتُ صوتا ما من خلفي.

التفتّ ورأيت ابتسامة فاتنة على وجه قريبة بائع الكتب، ونظراتها الهائمة في الفراغ. كان لها صوت مؤثر وواهن مثل البلّور، ما جعلني أتردد في الإجابة.

«أخبرني العم جوستابو بأنه عرض عليك مبلغا طائلا من المال في كتاب كاراكس وأنت رفضت» أضافت كلارا. «لكنك كسبت احترامه.»

«يبدو لي ذلك أيضا» تنهدتُ.

كانت كلارا تتبسم ورأسها محنيّ قليلًا وأصابعها تداعب خاتما من الياقوت.

«كم عمرك؟» سألتني.

«أحد عشر عاما تقريبا» أجبتها. «وحضرتك؟»

وجدت كلارا سذاجتي مدعاة للتسلية.

«ضِعف عمرك تقريبًا، لكن هذا لا يمنع من خفض الكلفة بيننا.»

«حضرتك تبدين أصغر من عمرك» قلت محاولًا أن أصلح ما أفسدتْه وقاحتي.

«سأثق بك طالما أنني لا أعرف هيئتي» ردت بتلك الابتسامة المطفأة دوما. «وبما أنّني بدوت أصغر من عمري فيجدُر بك إذن أن تخفض الكلفة بيننا.»

«كما تفضّلين يا آنسة كلارا.»

لاحظتُ باهتمام يديها وهما تنفتحان على حضنها كالأجنحة، وخصرَها الممشوق في ثنايا فستانها، لاحظتُ منحنًى كتفيها، عُنقَها ناصعَ البياض وشفتيها المرسومتين على وجهها. ولكم تمنّيت أن ألمسها، فأنا لم أحظ بإمكانية النظر إلى امرأة قريبة إلى هذا الحد دون أن تراني مطلقا.

«إلام تنظر؟» سألتني كلارا بنبرة مخاتلة.

«يقول الدون جوستابو إنك خبيرة بخوليان كاراكس» ارتجلت إجابة ما.

«العمّ قادر على أن يقول أي شيء شرط أن يقضي الوقت وحيدا وهو يعاين كتابا أعجبه» ردت كلارا. «ولكنك ربما تتساءل كيف يمكن لأعمى أن يكون خبيرا بالكتب مع أنه لا يستطيع قراءتها.»

«أقسم أنني لم أكن أفكّر في هذا.»

«كم أنت بارع في صنع الأكاذيب، إذا أخذنا بالحسبان أنك لم تتم الحادية عشرة من عمرك بعد. حذار أن تصبح مثل العم جوستابو.»

خشيت أن يزلّ لساني بكذبة أخرى فاقتصرت على البقاء ساكتا أتأملها بذهول.

«هيا. اقترب مني» قالت.

«ماذا؟»

«اقترب مني. لا تخف. لن آكلك.»

نهضتُ من الكرسي واقتربت منها فمدت يدها اليمنى تبحث عني بإحساسها. مددت يدي إليها مترددا، فأخذتها باليسرى ووضعت فوقها اليمنى بكل هدوء. فأدركت حينها ماذا تريد ورفعتُ يديها نحو وجهي. كان لها ملمس دقيق ومرهف في الوقت نفسه. اكتشفتْ أصابعها عظام وجنتيّ. وبقيت جامدًا أحبس أنفاسي بينما كانت تفكّ طلاسم ملامحي وهي تبتسم راضية وتحرّك شفتيها بخفة. تلمَّسَتْ أناملُها جبيني وشعري وجفنيّ واقتربت على مهل نحو فمي وهي تتبع ثنايا شفتيّ بالبنصر والسبابة. كانت رائحة القرفة تفوح من بين أصابعها، وقلبي يرفرف كالطير. لقد حمدتُ العناية الإلهية على غياب الشهود لأنّ اللهيب الذي كان يحرق خديّ كاف لإشعال سيجار على بعد ذراع مني.

3

في ذلك العصر الحار الذي تساقطت فيه زخّات من المطر، سلبت مني كلارا برسلوه النوم والقلب والأنفاس. طبعت يداها على وجهي، تحت ذلك الظل الذي يحوم في تلك الصالة، لعنةٌ كادت تلاحقني إلى الأبد. وبينما كنت أتأملها منبهرا كالأطفال، روت لي قصتها وكيف التقت، عن طريق الصدفة هي الأخرى، بصفحات خوليان كاراكس. حدث هذا في إحدى بلدات البروفانس الفرنسية. فحالما اندلعت الحرب الأهلية أرسل والد كلارا، وهو محام لامع ذو صلة بحكومة الرئيس كومبانيس، أرسل زوجته وابنته عند أخته التي تعيش في فرنسا. وقد قيل عنه حينها إنه يبالغ في حذره، فكان الجميع على يقين بأنّ برشلونة سوف تكون في معزل عن تلك الأحداث وبأن البربرية في إسبانيا، مهد الحضارة المسيحية، محصورة في حركة الأناركيين[1] الذين لن يؤثروا كثيرا طالما أنهم يمتطون دراجات هوائية ويرتدون ثيابا رثة. وكان والد كلارا يقول إنّ الأمم لا تنظر إلى نفسها في المرآة، ولاسيما إذا أرادت خوض حرب ما. كان هذا المحامي يعرف التاريخ جيدا ويعرف أن المستقبل يُقرأ بوضوح في الشوارع والمصانع وثكنات الجيش أكثر ممّا يُقرأ على صفحات الجرائد. ظل يراسل عائلته كل أسبوع من مكتبه الواقع في شارع ديبوتاثيون في بادئ الأمر، ثم راح يمحو

عنوانه كي يتوارى عن الأنظار. وفي النهاية راسلهم من إحدى زنازين سجن قلعة مونتويك مثلما انتهى الأمر بالكثيرين، ومثلهم أيضًا لم يره أحد وهو يدخل هناك ولا وهو يخرج بعدها إلى الأبد.

كانت والدة كلارا تقرأ تلك الرسائل بصوت مرتفع وهي تشهق وتتخطى بعض المقاطع كي لا تزيد في قلب الفتاة لوعة. لكن كلارا كانت تقنع ابنة عمتها كلاوديت، في وقت متأخر حوالي منتصف الليل، بأن تعيد عليها قراءة الرسائل. هكذا كانت تزاول القراءة، بأن تستعير عيون الآخرين. لم يرها أحد تذرف دمعة أبدا، لا حين توقفت رسائل المحامي عن الوصول ولا حين بدا أن أخبار الحرب تُنبئ بحدوث الأسوأ.

«كان أبي على علم بما سيجري» قالت. «ظل قريبا من أصدقائه بدافع الواجب ثم قُتل لأنه كان وفيا لمن خانه في اللحظة الحرجة. لا تثق بأحد يا دانيال، خصوصا بأولئك الذين يعجبونك. سيكونون أول من يطعنك غدرا.»

بينما كانت كلارا تبوح بتلك الكلمات بقسوة تشكلت عبْر سنوات من الألم المكبوت، كنت أتوه في نظراتها التي تشبه الدمية الخزفية، وأضيع في تَيْنك العينين اللتين لا تدمعان، وأصغي إليها تحدّثني عن أمور لم أكن لأفهمها. كانت تصف أشخاصًا وأجواءً وأشياء لم ترها يوما بدقة خالصة وتفاصيل غنية لا يوازيها إلا الرسامون الفلامنديون. كانت لغتها مصبوغة بشتى الألوان، وذكرياتها كنسيج شفاف تحيكه برنة الأصوات ووقع الخطى. وضّحت لي بأنها كانت تدرس في أيام المنفى الفرنسي رفقة ابنة عمتها كلاوديت عند معلّم خصوصيّ يناهز الخمسين عاما، عاشق للنبيذ المعتق وله مطامح أدبية. ويزعم بأنه يحفظ إنياذة فرجيل عن ظهر قلب، باللاتينية ودون أي أثر للهجة. كانت الفتاتان تسمّيانه بالسيد روكفورت[2] نسبة إلى الرائحة الكريهة التي تنبعث منه رغم حمّام الكولونيا وباقي العطورات التي يرشها على جسمه المترهل. وكان السيد ركفورت معتدا بسلوكه الرفيع رغم بعض مسلماته الغريبة (من بينها يقينه التام بأن اللحوم المقددة، لاسيّما أمعاء الخنزير المملحة التي تصل إلى كلارا وأمها من أقاربهما الإسبانيين، بمثابة الدواء الشافي لأمراض المفاصل والدورة الدموية). كان يقصد باريس مرة في الشهر منذ أيام شبابه لينمّي آفاقه الأدبية بالاطّلاع على جديد الأدب وزيارة المتاحف، ويشاع أنه كان يضاجع مومسًا هناك يسمّيها مدام بوفاري مع أنها تدعى هورتينس التي يملأ الزغب وجهها. وأثناء تلك النزهات الثقافية، كان السيد روكفورت يشبع فضوله على إحدى عربات باعة الكتب المتجولين قبالة كنيسة نوتردام حيث وقعت بين يديه رواية لكاتب مغمور يدعى خوليان كاراكس، في إحدى أمسيات العام 1929. حصل روكفورت على الكتاب وقد جذبه العنوان وذلك لأنه اعتاد على قراءات خفيفة يقضي بها رحلة العودة في القطار. كان عنوان الرواية «المنزل الأحمر» وعلى غلافها الخلفي ثمّت صورة للكاتب غائمة المعالم، لعلّها صورة فوتوغرافية أو رسم بورتريه على الفحم. وبحسب النبذة عن المؤلف فإن خوليان كاراكس كان يبلغ السابعة والعشرين من عمره، ولد في برشلونة في أوائل القرن ثم انتقل إلى باريس، يكتب بالفرنسية ويحصل على قوت يومه بالعزف على البيانو في أحد بيوت الدعارة. كان هذا التقديم، ذو الأسلوب المسهب وفقا لمفاهيم ذلك العصر، يُبرز عملًا أدبيا استثنائيا لمؤلف متعدد المواهب، ويكشف عن كاتب واعد في مستقبل الآداب الأوروبية دون أي مجال للمقارنة بينه وبين الأدباء الأحياء حينئذ. والملخص يوحي بأجواء غريبة وغامضة وشخصيات شبيهة بأبطال الروايات المسلسلة، وهذا ما بدا على قدر من الأهمية بالنسبة إلى السيد روكفورت الذي كان يفضّل أدب الإثارة والتشويق بقدر ولعه بالمؤلفات الكلاسيكية الكبرى.

تتحدث رواية «المنزل الأحمر» عن شخص غريب الأطوار يسرق الدمى من المتاحف ومحلات لعب الأطفال ثم يفقأ عينيها ويحملها معه إلى كوخه المظلم الموحش على إحدى ضفاف نهر السين. وفي إحدى الليالي يدخل إلى منزل فاخر لواحد من كبار الشخصيات الاقتصادية يقع في حي فوا. كان صاحب المنزل قد اغتنى بنشاطات غير مشروعة أثناء الثورة الصناعية، وأراد اللص أن يحطّم الدمى التي جمعها ذلك الرجل بشغف كبير. فتقع ابنته في غرام اللص، وهي سيدة مثقفة وراقية من الطبقة الباريسية النبيلة. وخلال قصة حبهما التي تشوبها أحداث معقدة وشائكة، تكتشف البطلة اللغز الخفي وراء إقدام البطل الغامض الذي لا تعرف اسمه على فَقْء عيون الدمى. تتسارع المجريات حتى تكتشف الفتاة السر الفظيع الذي يدفع والدها على اقتناء تلك الدمى الخزفية فتخرّ ميتة في نهاية تراجيدية رومانسية ومرعبة على الطريقة الأدبية القوطية.

كان السيد روكفورت يعرف اسم دار النشر المتواضعة التي أصدرت الرواية، والتي اشتهرت، على نطاق ضيق، بإصدار كتب لتعليم الطبخ والتطريز والفنون المنزلية الأخرى. كيف لا وهو المنظر الأدبي الذي لا يشق له غبار، والفخور بكونه صاحب أكبر عدد من رسائل الرفض التي رد بها الناشرون الباريسيون على أعماله الشعرية والنثرية. أخبره بائع الكتب المتجول أن تلك الرواية كان قد صدرت لتوها ولم تحظ إلا بقراءة أو اثنتين في زاوية فرعية على صفحة الوفيات في إحدى المجلات الريفية. هاجم النقاد الرواية بعنف لا يتجاوز السطرين ونصحوا الكاتب الغرّ بأن يلتفت لعمله كعازف بيانو لأنه كاتب نكرة. أمّا السيد روكفورت الذي كان سخيَّ العواطف فقد قرر أن يستغني عن نصف فرنك ليشتري رواية كاراكس وطبعة فاخرة لإحدى روايات فلوبير العظيم الذي لطالما اعتبر نفسه خليفته المظلوم.

كان القطار المتوجه إلى ليون مكتظا بالمسافرين، وهو ما أرغم السيد روكفورت على مشاطرة المقصورة في الفئة الثانية مع اثنتين من الراهبات. وما إن انطلقت القافلة من محطة أوسترلتز حتى بدأتا بالتمتمة وإطلاق نظرات الإعجاب. وهذا ما جعل السيد روكفورت يُخرج رواية كاراكس من حقيبته ليختبئ وراء صفحاتها وينأى بنفسه عن تغزّل الراهبتين به. وسرعان ما تفاجأ بأنه، بعد مائة كيلومتر من الرحلة، كان قد انعزل تماما عن الراهبتين وحشرجة القطار والمنظر الطبيعي الذي يمرّ عبر النافذة مثل كابوس قضّ مضجع أحد الأخوين لوميير. بل قرأ خلال الليل كله غير آبه بشخير الراهبتين ولا بالوقوف على المحطات الغارقة في الضباب. وطلع الفجر حالما أدار روكفورت الصفحة الأخيرة ولاحظ أن عينيه تغرورقان بالدموع وقلبه أسير الحسد والإعجاب.

وفي يوم الاثنين نفسه، هاتفَ دار النشر الباريسية كي يستفسر عن الكاتب. ألحّ طويلا قبل أن يحصل على إجابة سفيهة من صوت سيدة مصابة بالربو. قالت تلك الموظفة إن السيد كاراكس لم يترك لديها أي عنوان وإن الناشر قد قطع علاقته به إذ أنّ مُجمل مبيعات رواية «المنزل الأحمر» لم يتجاوز سبعة وسبعين نسخة اقتنتها العاهرات على أغلب الظنّ وزبائنُ بيت الدعارة حيث يدندن الكاتب المقطوعات الليلية البولونية. فيما أرسلت النسخ التي لم يشترها أحد إلى مزبلة الورق لإعادة تدويرها وتحويلها إلى كتيّبات دينية وبطاقات يانصيب ومخالفات مرورية. أعجب السيد روكفورت بالحظ العاثر الذي مني به ذلك الكاتب الغامض، فما كان منه إلاّ البحث في كل محلاّت الكتب المستعملة عن أعمال كاراكس الأخرى في كل رحلة إلى باريس خلال السنوات العشر اللاحقة. ولكن هيهات، لم يعثر على شيء. لم يكن أحد يعرف شيئا يُذكر عن الكاتب. رأى بعضهم أن كاراكس كان قد أصدر بعض الروايات الأخرى، من دور نشر صغرى أيضا وبنسبة تداول ضئيلة

جدا. وكان من شبه المستحيل العثور على تلك الروايات. لقد قال له أحد الباعة ذات يوم إن رواية لكاراكس بعنوان «لص الكاتدرائيات» كانت قد مرّت بين يديه في الماضي لكنه ليس متأكدًا تماما. وفي نهاية العام 1935 بلغ خبر إلى مسامع روكفورت يفيد بأن رواية جديدة لكاراكس بعنوان «ظل الريح» قد صدرت للتو من دار نشر صغيرة في باريس. وسرعان ما راسل الناشر ليحصل على عدة نسخ لكنه لم يستلم أية إجابة. وفي مطلع صيف العام اللاحق، سأله صديقه القديم بائع الكتب على عربة عند نهر السين إن كان ما يزال مهتما بكاراكس. فأجابه بأنه لم يستسلم أبدا، إذ باتت مسألة شرف: كلما أصر العالم على دفن كاراكس في النسيان ازداد تصميما على بعث الروح فيه ثانية. فأخبره صديقه بشيوع بعض الأقاويل عن كاراكس منذ عدة أسابيع تُنبئ بأن الحياة قد ابتسمت أخيرا في وجه الكاتب. إذ كان سيتزوج من سيدة ميسورة الحال وقد صدر له كتاب بعد سنوات من العزلة حاز على قراءة إيجابية في صفحات اللوموند. ولكن ما إن بدا أن الحظ السعيد وقف في صفه حتى دُعي كاراكس إلى مبارزة في مقبرة بيرلاشيز. كانت التفاصيل متضاربة، والمؤكد أنّ المبارزة قد وقعت في فجر يوم زواجه وأنّ العريس لم يأت إلى الكنيسة قطعا.

وتضاربت التخمينات أيضا. تكهّن بعضهم أنّ المبارزة أدت إلى مصرع كاراكس وأنه دفن في قبر دون شاهدة، بينما توقّع أكثرهم تفاؤلا بأنه أقحم نفسه في عمل قذر اضطره إلى هجر عروسته عند مذبح الكنيسة ليفرّ من باريس عائدا إلى برشلونة. لم يعثر أحد على ذلك القبر دون الشاهدة وبعد حين شاعت حكاية أخرى تُفيد بأن البؤس والتعاسة المصيرية لحقا به إلى مسقط رأسه ليموت هناك، وهذا ما دعى بنات بيت المتعة، حيث كان يعزف، إلى لمّ بعض النقود كي يدفعن له ثمن قبر يليق به. ولكن المبلغ وصل إلى برشلونة متأخرا وكانت الجثة قد دفنت في حفرة جماعية تضمّ جثث الشحاذين والغرقى المجهولين عند المرفأ والميتين جوعا على سلالم الميترو.

ومع هذا لم يستطع روكفورت العنيد أن ينسى خوليان كاراكس. فبعد عشرة أعوام من اكتشافه لـ «المنزل الأحمر» قرر أن يعير الرواية لتلميذتيه الشابتين آملا أن يجذبهما بهذا الكتاب الغريب إلى حب القراءة. وكانت كلارا وكلاوديت في سن الخامسة عشرة يمران بأعتى العواصف الهرمونية ويتحسّسان من أيّ مغازلة تُمطر على نوافذ الغرفة التي يدرسان فيها. ورغم مساعي المعلم الخصوصي، فقد حاولت الفتاتان حتى تلك اللحظة أن تبقيا محصنتين بتأثير الكلاسيكيات وحكايات إيسوب وأشعار دانتي الخالدة. ولأنه خشي من إمكانيّة تخلّي والدة كلارا عن خدماته حين تكتشف أن دروسه كانت مفيدة في تكريس الجهل والغباء في رأس الشابتين لا غير، فقد قرّر إذن أن يعيرهما رواية كاراكس قائلا بأنها قصة حب من النوع الذي يُشغل العيون بالبكاء. وكان محقًا في هذا نسبيا.

4

«لم يحدث أبدا أنّ رواية سحرتني وجذبتني وحركت مشاعري كما فعلت بي رواية «المنزل الأحمر»» قالت لي كلارا. «لطالما اعتبرت القراءة واجبا أو صدقة تُمنح للأساتذة والمعلمين دون أن نعرف سببها الحقيقي. كنت أجهل طبيعة المتعة التي تهبنا إياها الكلمة المكتوبة، المتعة في ولوج أسرار الروح والاستسلام لنزوات الخيال وألغاز الإبداع الأدبي. أعترف بأن لتلك الرواية الفضل في هذه الاكتشافات. هل سبق وأن قبّلت فتاة يا دانيال؟»

صعقني السؤال وانعقد لساني.

«حسنا. لا أنكر أنك مازلت صغيرا، لكن الإحساس مشابه لما مررت به. ومثلما لا يمكن للذاكرة أن تنسى لهيب القبلة الأولى، فإنّ الخلود هو مصير الرعشة التي تنتابنا من متعة القراءة. نحن نعيش في عالم من الظلال يا دانيال، والخيال من الخيرات النادرة. لقد علّمني ذلك الكتاب أنّ القراءة تمنحني فرصة العيش بكثافة أكبر وأنني قادرة على الإبصار بفضلها. وهذا ما يفسّر كيف غيّر حياتي كتابٌ اعتبره الآخرون بلا جدوى.»

لم أستطع أن أقول شيئا إذ كنت أرزح تحت رحمة ذلك المخلوق الذي يفتنني بصوته فلا أقوى عليه ولا أريد أن أقاوم سحره. بل وددتُ ألاّ تكف كلارا عن الكلام لكي أبقى أسيرا لصوتها، وألاّ يعود عمّها أبدا كي لا يبدد لحظة الإغراء تلك التي شعرت بأنها لي وحدي.

«بحثت لسنوات عن كتب أخرى لخوليان كاراكس» تابعت كلارا. «كنت أقصد المكتبات وباعة الكتب والمدارس دون جدوى. ما من أحد سمع بالكاتب ومؤلفاته ولم يكن بوسعي أن أصدّق هذا. وذات يوم وصلَتْ إلى مسامع السيد روكفورت إشاعةٌ مفادُها أنّ شخصا ما كان يجول بين المكتبات بحثا عن أعمال كاراكس، فإن وجدها إما اشتراها أو حصل عليها بعنف أو سرقها وذلك كله لكي يحرقها وحسب. لم يكن أحد يعرف من هو ولماذا يفعل هكذا، كأن شخصية كاراكس ينقصها غموض جديد يضاف إلى سيرته الغامضة أصلا. وبعدها بزمن قصير، أصاب المرض والدتي فقررتِ العودة إلى إسبانيا، إلى دارها وعالمها في برشلونة. وكنت أقتات في سريّ على الأمل في اكتشاف أي شيء عن كاراكس بما أنه ولد هنا واختفى من هنا مع بداية الحرب. باءت محاولاتي بالفشل رغم مساعدات عمي وجهوده. حتى محاولات أمي بالبحث باءت بالفشل أيضا. إبان عودتها لم تجد برشلونة التي كانت تعرفها، لقد تحولت إلى مدينة أشباح وفي كل زاوية وشارع يتراءى لها ظل أبي. ثم قصدت أحدهم كي تعرف كيف مات وكأنها لم تكن تعاني ذكراه بما فيه الكفاية. وبعد أشهر من البحث عثر المحقق على ساعة يد والدي المحطمة فقط، كما عرف اسم الرجل الذي قتله في دهاليز قلعة مونتويك. يدعى فوميرو، خافيير فوميرو. قالوا لنا إن هذا الرجل، وكان عدد أمثاله لا يحصى، بدأ يتسلق سلّمه الوظيفي كقاتل مأجور لصالح الحركة الأناركية اللاسلطوية ثم راح يتعامل مع الانفصاليين والشيوعيين والفاشيين ويبيع خدماته القذرة لمن يقدّم عرضا ماديا أكبر. وبعد سقوط برشلونة انحاز إلى جانب المنتصرين ودخل في سلك الشرطة. واليوم أصبح محققا معروفا وعُلقت على صدره النياشين. وأما والدي فلا يذكره أحد. ولك أن تتخيل كيف توفيت والدتي حسرة في غضون أشهر قصيرة. وقال الأطباء إن قلبها لم يكن يحتمل أي عبء وأظن أنهم كانوا محقين ولو لمرة واحدة. وبعد وفاتها انتقلتُ للعيش عند العم جوستابو إذ كان قريبنا الوحيد في برشلونة. كنت أكن له المودة لأنه كان يهديني الكتب في كل مرة يأتي خلالها لزيارتنا. وأثناء هذه السنوات غدا عائلتي وصديقي المفضّل. قد يبدو متعجرفا لكنه ودود. يقرأ عليّ شيئا ما كل مساء حتى لو اشتدّ عليه النعاس.»

«بوسعي أن أقرأ عليك أنا إن أحببت» اقترحتُ وسرعان ما ندمت على جسارتي لأنني ظننت أن صحبتي ستزعجها أو أن تعتبرها حكاية مضحكة تتسلى بها مع صديقاتها.

«من دواعي سروري. شكرا يا دانيال» أجابتني.

«إنني بخدمتك متى أردت» أومأتُ بخجل وأنا أبحث عن نفسي في ابتسامتها.

«لم تعد عندي تلك النسخة من رواية «المنزل الأحمر» لسوء الحظ» قالت. «لم يشأ السيد روكفورت أن يتخلى عنها. لعلني قادرة على روايتها لك بإيجاز ولكنها ستبدو شبيهةً بوصف كاتدرائية بأنها جمع من الصخور يقوم على نسق هرميّ.»

«إنني واثق من أنك قادرة على إيجازها بأفضل من هذا بكثير» غمغمتُ.

بإمكان النساء أن يدركن على الفور ما إذا كان أحد الذكور متيما بهنّ ولاسيما إذا كان قاصرا أحمق. كانت المقدمات كافية لكي تهملني كلارا برسلوه كليا، غير أنني توهمت بأن العمى قد يضمن لي هامشًا آمنا أتحرك فيه. خلتُ أن تعلقي الرومانسي بامرأة تكبرني ضعف عمري وتفوقني ذكاء وطول قامة قد يمر دون أن تلحظه عين أحد. ومن يدري ما الذي وجدته فيّ لكي تمنحني صداقتها، ربما كنت انعكاسا جليا لنفسيتها أو صدى يؤنس ظلمة وحدتها. كانت المراهقة تمنّ عليّ بالأحلام لأرى أننا عاشقان نمتطي ظهر كتاب ونهرب نحو عالم خيالي مبنيّ على ركام أوهام مستعملة.

ظهر برسلوه ثانية بابتسامة مخادعة بعد ساعتين مرّتا عليّ كأنها دقيقتان. أعاد لي الكتاب وهو يغمز.

«تفحّصْه جيدا أيها الفتى. لا أريدك أن تتهمني بأنني استبدلته بكتاب آخر.»

«إنني أثق بك يا سيدي.»

«أحسنت أيها الماكر! تصوّرْ أن سائحا أمريكيا كان آخر ضحية وقعت بين براثني. كان مقتنعا بأن الـ «فابادا» طبق ابتكره همنغواي للاحتفال بالقديس فيرمين. فاحتلتُ عليه وبعتُه نسخة من كوميديا «فوينتيه أوبيخونا»[3] بعد أن جلّدتها بعناية وزعمتً بأنها مُمضَاةٌ من لوبي دي فيغا بقلم حبر جاف. اعلمْ أن في مهنة بيع الكتب لا يمكنك الوثوق حتى بالفهارس.»

كان قد حلّ الظلام حين خرجنا إلى الشارع. هبّ نسيم بارد فنزع برسلوه سترته ووضعها على كتفي كلارا. وقبل أن أنصرف، وبحيادية مطلقة جدُّدت عرضي بالمجيء إلى بيتهم في اليوم التالي كي أقرأ على كلارا بعض الفصول من «ظل الريح». رمقني برسلوه بنظرة غائرة وافتعل ضحكة قصيرة.

«أراك متحمّسا يا فتى!» تمتم بصوت منخفض ونبرة محترمة.

«إن لم يكن بإمكاني المجيء في الغد، فبوسعي المرور في يوم آخر أو...»

«إنها كلارا من عليه أن يقرر» قال بائع الكتب. «لدينا سبع قطط وببغاوّان. ماذا يضير لو زادت هذه الحيوانات واحدًا؟»

«سأنتظرك غدا حوالي السابعة إذن» أنهت كلارا النقاش. «هل تعرف أين بيتنا؟»

في طفولتي المبكرة، كنت أحلم بأن أصبح كاتبا وبأن أعيش كبطل قصة ميلودرامية مثيرة، ربما لأنني نشأت بين الكتب وباعتها. إلا أن هذه التخيلات الصبيانية كان مردّها الأساسي تحفة مصنوعة يدويا ومعروضة للبيع في أحد محلات حي أنسيلمو كلافيه خلف مبنى الحكومة العسكرية تماما. وكان هذا الغرض الذي يجذبني عبارة عن قلم حبر أسود سائل في غاية الروعة مزوّق بالزخارف الباهرة، ويتألق من خلف زجاج المحل كالمجوهرات التي تشع على التاج. وكنت أرى ذلك القلم أعجوبةً في حدّ ذاته، أراه أشبه بدوّامة فنية تهتاج بنسيج من الذهب والفضة متقن الحياكة ولا تضاهي بريقه سوى منارة الإسكندرية. وعندما كنت أخرج للنزهة مع والدي، لم يكن يهدأ لي بال إلا إذا أخذني لرؤية القلم الذي كان ملكًا لإمبراطور ما على حدّ قوله. وكنت في سرّي واثقا من أن تلك المعجزة قادرة على كتابة أي شيء، من رواية إلى موسوعة ورسائل ليست في حاجة إلى ساعي بريد. كنتُ بريئا إلى درجة الاعتقاد بأن أيّ رسالة تُكتب بذلك القلم سوف تصل إلى وجهتها لا محالة حتّى لو كانت الوجهة ذلك المكان البعيد حيث توجد أمي مثلما يزعم والدي.

وذات يوم قررنا أن ندخل المحل لنكتشف أن القلم من أفخر النوعيات بلا منازع، مونتبلانك مينسترستوك النادر، وصاحبه، على ذمة البائع، فيكتور هوغو تحديدا. أخبرنا بأن من هذا القلم الذهبي تدفقت رواية «البؤساء».

«تماما كما تنبثق مياه الفيشي الكتالونية من ينابيع الكالداس» أضاف.

قال لنا إنه حصل عليه من أحد الباريسيين المولعين بجمع المقتنيات الفاخرة، بعدما تأكد من أنه أصلي.

«وهلا أعلمتنا بسعر هذا الينبوع العجيب من فضلك؟» سأله والدي.

جحظت عيناي عندما سمعت بالرقم ولكنني كنت قد همت حبا به وقُضي الأمر. ولعل البائع ظنّ أنه يتعامل مع اثنين من العلماء، فراح يمدنا بمعلومات لم نكن لنفهمها عن الخيوط المعدنية باهظة الثمن وأصباغ الشرق الأقصى، ثم أخذ يشرح لنا نظرية ثورية في عالم السدادات والأواني المستطرقة وعناصر أخرى من ذلك الفن التوتوني الغابر، الفنّ الذي يسمح لتلك الأعجوبة التقنية بأن تعبّر عن خطّها المذهل. والحق يقال إنّ البائع، ورغم مظهرنا البائس، ملأ القلم بالحبر وسمح لي بكتابة اسمي على الرّق. وهكذا افتتحتُ سيرتي الأدبية التي لا تقلّ أهمية عن سيرة فيكتور هوغو. وبعد أن لمّع تلك التحفة بقطعة قماش أعادها إلى عرشها المشرّف.

«ربما نعود لاحقا» غمغم والدي.

وحين خرجنا قال لي إنّ وضعنا الماديّ لا يسمح لنا بشراء القلم، فعائدات المكتبة تكاد لا تكفي معيشتنا ودفع أقساط المدرسة. وبذلك كان التأجيلُ مصيرَ قلم فيكتور هوغو العظيم. لم أنبس ببنت شفة لكن خيبة الأمل المريرة لاحت على وجهي.

«سنفعل هكذا» اقترح والدي «حين تشرع بالكتابة، نعود إلى هنا ونشتريه.»

«فلنفترضْ أنهم باعوه خلال هذا الوقت!»

«لن يشتريه أحد. كن مطمئنا. ولو حدث ذلك سنطلب من الدون فيديريكو أن يصنع لنا واحدا مشابها. أنت تعلم أنّ لذلك الرجل الموهوب يديْن سحريّتيْن، أليس كذلك؟»

كان الدون فيديريكو ساعاتي الحي وزبونا عرضيا لمكتبتنا وواحدا من أكثر الأشخاص لطفًا وتهذيبًا في غرب الكرة الأرضية. وكانت شهرته كحرفيّ ماهر تمتد من حي ريبيرا حتى سوق نينوت. كما كان ينعم بسمعة من نوع آخر، أقل شأنا بكثير، تعود إلى ولعه الذي لم يستطع كبته بالشبان شديدي العزم من البروليتاريا الرثة، وميوله التي تجنح به ليرتدي ثيابا كثياب المغنية إيستريلا كاسترو.

«وإن كان الدون فيديريكو منشغلا بما هو أهم من صناعة قلم؟»

تجهّم وجه والدي، ربما لأنه خشي أن تكون أقاويل الناس قد وصلت إلى أذنيّ البريئتين.

«الدون فيديريكو مُطّلع على كل المنتجات الألمانية، ولو أراد لَصَنَع لك سيارة فولكس فاجن أيضا. ثم إنّ لي فضولًا كبيرًا بمعرفة وجود أقلام الحبر السائل أصلًا خلال أيام فيكتور هوغو. هنالك الكثير من النصابين حولنا يا دانيال.»

تأثّرت باعتراضات والدي لأنه برّرها من زاوية تاريخية. إلاّ أنّني لم أعترض على فكرة أن يصنع الدون فيديريكو قلما مشابها رغم إيماني العميق بأسطورة القلم الأصلي. وكان الوقتُ ما يزال لديّ لمنافسة فيكتور هوغو. وكما أسلف والدي، فإن القلم العريق ظل لأعوام خلف زجاج المحل وكنا نذهب كي نراه كل صباح يوم سبت.

«ما يزال هناك» كنت أهتف مندهشا.

«ما يزال ينتظرك» كان والدي يجيبني. «كما لو أنه يعرف بأنه سيصبح ملكا لك في يوم من الأيّام وستكتب به رائعة أدبية.»

«أنا أريد أن أكتب رسالة لأمي كي لا تشعر بالوحدة.»

«أمك ليست وحدها يا دانيال» يرد والدي هادئ الأعصاب. «إنها برفقة الله وتعلم بأننا قريبان منها حتى لو لم نكن نراها.»

لقد كانت النظريةَ نفسَها للأب فيثنتي، وهو معلّم يسوعيٌّ عجوز في مدرستي قادر على تفسير أي سرّ غامض في هذا الكون، من المذياع إلى ألم الأسنان، بذكر آيات من إنجيل متّى. ولكن هذه الحقائق لم تكن تقنعني جدا حين تخرج من فم والدي.

«ولماذا يريدها الله أن تكون عنده؟»

«لست أدري لماذا. سوف نسأله عن هذا إذا التقينا به يوما ما.»

تخليت عن فكرة الرسالة في نهاية المطاف، وفكرت أن لحظة تأليف الرائعة الأدبية قد حانت. أعارني والدي قلم رصاص ستيدلر2 ورحت أخربش به على أحد الدفاتر، نظرا إلى عدم وجود قلم حبر. وللمفارقة، كان بطل قصّتي قلمَ حبرٍ فاخرًا يشبه إلى حد بعيد ذاك الذي كان في المحل. وتعيش في القلم العجيب روح صاحبه السابق، وقد كان كاتبا مات بردا وجوعا. وحين وصل القلم إلى يد أحد المبتدئين، انصبت منه على الأوراق آخر مؤلفات الكاتب، تلك التي لم يستطع أن يتمّها وهو حيّ. لم أعد أذكر من أين اقتبست الفكرة، لكنها كانت الفكرة الأكثر لمعانا في حياتي كلها. ومع هذا، كان الفشل ينتظر جميع محاولاتي بتكوين شكل معين للقصة. كنت ضحية العجز في الإبداع، إذ استخدمت أسلوبا ومجازات شبيهة بدعايات حمّام الأقدام التي كنت أقرؤُها عند مواقف الترام. كنت

ألقي اللوم على قلم الرصاص وأتوق إلى ذاك القلم الذي كان من شانه أن يحولني إلى كاتب كبير. وكان والدي يتابع جهودي بمزيج من الفخر والقلق.

«كيف حال قصتك يا دانيال؟»

«لا أعرف. لو اشتريت ذلك القلم لتغيّر كل شيء.»

كان يقول لي إنني أفكر كأديب في بداية عهده.

«عليك أن تستمر في الكتابة وحالما تجهز القصة سوف أشتري لك القلم.»

«هل تعدني بذلك؟»

فيجيبني بابتسامة. ولحسن حظه أن تطلعاتي الأدبية لم تدم وقتا طويلا واقتصرت على طموحات عامة، ولعل السبب يكمن في أنني اكتشفت لعب الأطفال التركيبية والمتنوعة في سوق لوس إنكانتيس وبأسعار تناسب ميزانيتنا. إنّ الشغف الذي يرافق الطفولة يشبه عاشقة غدارة ومتقلبة الأهواء، فسرعان ما احتلّني الولع بتركيب القوارب الصغيرة وكففت عن تذكير والدي بأن يصحبني لرؤية القلم وكفّ هو عن ذكره أيضا. ومن جهة أخرى نقشتُ في مخيلتي صورة عن أبي: رجل هزيل يلبس رداء قديما وطويلا وقبعة مستعملة اشتراها من حي كوندال بسبعة بيزيتا، ولا يستطيع أن يهدي ابنه قلما خارقا للعادة وعديم الجدوى بالمقابل.

في ذلك المساء كان ينتظرني وهو جالس في صالة الغداء بمزاجه المضطرب كالعادة.

«كدت أظن أنك تهت» قال. «جاء توماس آغويلار يبحث عنك. هل نسيت أنه كان بانتظارك اليوم؟»

«برسلوه رجل ثرثار» بررت تأخري. «حاولت عبثا أن أقول له بأنني مشغول وعليّ الرحيل.»

«يبدو مملا في بعض الأحيان، لكنه شخص رائع. لابد أنك جائع. لقد أحضرت مرسيديتاس قليلا من الحساء الذي أعدّته لأمها. يا لها من شابة طيبة حقا.»

جلسنا لنأكل من صدقات مرسيديتاس، ابنة جارتنا في الطابق الثالث. كان الجميع يتوقع أن تصبح هذه الفتاة راهبة أو قديسة، ولكنني رأيتها في أكثر من مناسبة وهي تخنق بقبلاتها بحّارا مخاتلا كان يرافقها حتى باب البناية أحيانا.

«أراك منشغل البال» قال والدي.

«ربما بسبب الرطوبة التي توسّع الدماغ كما يدّعي برسلوه.»

«لا أعتقد ذلك. ما الأمر يا دانيال؟»

«لا شيء. كنت أفكر في موضوع ما.»

«ما هو؟»

«كنت أفكر في الحرب.»

هز أبي برأسه وتابع طعامه. كان رجلا هادئا ولم يكن يتحدث في الماضي مع أنه يعيش على ذكرياته. وأنا نشأت على اقتناع بأن الكآبة التي رسّختها الحرب، إضافة إلى البؤس والآلام المكتومة، من الأشياء الطبيعية تماما كتعاقب الفصول. بل وكنت مقتنعا بأن التعاسة التي تقطر من الجدران تعبّر عن روح المدينة الجريحة. من إحدى مكائد الطفولة أنّك لا تفهم بالضرورة ما تعانيه، وحين تبلغ سن الرشد يفوت الأوان على مداواة جراحك. في ذلك المساء من الصيف، وفي غروبٍ برشلونيٍ لا يُوثق فيه، فكّرت بكلام كلارا عن مصرع والدها. كنت في ذهني البريء أتخيل الموت كأنه يدٌ لشخص مجهول ومباغت، كمندوب مبيعات يقتحم البيوت فيخطف الأمهات والمتسولين والجيران الطاعنين في السن كأنه في دورة يانصيب جهنمية. كم بذلت جهدا كي أتقبل فكرة أنّ الموت يمشي إلى جانبي، وله وجهُ رجلٍ وقلبٌ مُسَمّم بالحقد، وكيف يرتدي بزة أو سترة مطرية ويقف في الصف كي يدخل السينما ويتردد إلى البارات، ويتنزه في الصباح مع أولاده في حديقة ثويدياديلا، فيما يغيّب شخصا ما عند المساء في إحدى زنازين قلعة مونتويك أو في حفرة جماعية دون شاهدة ولا جنازة. خطر في بالي أن هذا الكون الذي أعيش فيه قد لا يكون في النهاية سوى واجهة من ورق مقوى. كانت تلك السنوات تمضي ببطء ثقيل، بل إنّ نهاية الطفولة مثل القطارات الوطنية تصل عندما تصل.

أكلنا ذلك الحساء من بقايا الطعام مع قليل من الخبز، بينما كانت همهمات مسرحية إذاعية تصدر من نافذة الجيران المطلة على ساحة الكنيسة.

«وكيف كان لقاؤك مع الدون جوستابو؟»

«تعرفت إلى قريبته كلارا.»

«الفتاة العمياء؟ يقال إنها جميلة جدا.»

«ربّما. لم أنتبه إلى ذلك.»

«هذا أفضل.»

«غدا بعد المدرسة عليّ أن أذهب إليهم كي أقرأ عليها شيئا ما وأجالسها لبعض الوقت، إن سمحت لي بذلك.»

رنا إليّ والدي بنظرة تخفي تساؤلا عمّا إذا كان هو الذي يشيخ قبل الأوان أم أنّ ابنه يكبر بسرعة. قررت أن أغيّر الموضوع، فما خطر في بالي إلا ما كان يشتعل في سريرتي.

«هل صحيح أنهم أثناء الحرب كانوا يقتادون الناس إلى قلعة مونتويك ثم لا يُعرف مصير أي أحد منهم؟»

«هل أخبرك برسلوه بذلك؟» سأل بنبرة جدية.

«لا. بل صديقي توماس. يروي بعض القصص الغريبة بين الحين والآخر.»

هز والدي رأسه ببطء.

«في الحروب تحدث أشياء فظيعة للغاية يصعب شرحها يا دانيال. من الأفضل أحيانا ألاّ نحفر في الماضي.»

تنهد وأنهى حساءه على مضض فيما كنت أراقبه بصمت.

«طلبت مني والدتك، قبل أن تتوفى، بأن أعاهدها على عدم الحديث معك عن الحرب. ينبغي ألاّ أخبرك بأيّ شيء ممّا مضى.»

لم أعرف كيف أردّ عليه. رأيته يرفع عينيه إلى السماء كأنه يبحث عن شيء ما في الفراغ، نظرة توحي بسكوت والدتي الراضية عن كلامه.

«ربما أخطأت في أنني عاهدتها على ذلك. لا أدري.»

«لا يهمّ يا أبتي.»

«بل إنه يهمّ يا دانيال. كل شيء يتغير بعد الحرب، وصحيح أن الكثير من الناس دخلوا إلى تلك القلعة ولم يخرجوا منها أبدا.»

تلاقت نظراتنا لوهلة ثم نهض والدي عن الطاولة وذهب إلى غرفته وقد جرحته أظفار النسيان الذي امتدّ طويلا. نظّفت الطاولة وغسلت الأطباق على المغسلة الصغيرة في المطبخ. وعدت إلى الصالة، أطفأت الضوء وجلست على أريكة والدي القديمة حين هبّت نسائم خفيفة حرّكت الستائر. لم يغالبني النعاس ولم تكن لي رغبة في النوم، فأطللت من الشرفة ونظرت صوب أضواء بويرتا دل آنخل (باب الملاك). هنالك ملامح رجل ثابتة في سياق من الظل. كان لمعان جمرة السيجارة ينعكس في عينيه، ويرتدي لباسًا غامقًا وإحدى يديه في جيب السترة والأخرى تحمل السيجارة التي ترسم شبكة من الدخان المائل إلى الزرقة على جانبٍ من وجهه. كان يراقبني وقد حجبه ارتداد الضوء، وظلّ واقفا حوالي الدقيقة على قدميه وهو يدخّن ويركّز نظراته عليّ. وما إن دقت نواقيس الكاتدرائية منذرة بمنتصف الليل حتى ثنى رأسه بخفة وأومأ بتحية تلمّح بابتسامة خفية. وددت أن أبادله التحية لكنني كنتُ متسمّرا من الخوف. وبينما كان الرجل يبتعد رأيت أنه كان يعرج قليلا. فضاقت أنفاسي وتصبب العرق البارد على جبيني. كنت قد قرأت توصيفا لمشهد مثل هذا في رواية «ظل الريح»: يخرج البطل إلى الشرفة كل ليلة عند منتصف الليل، ويلاحظ أنه مراقب من رجل مجهول يدخن في الظلام وعيناه تلمعان كجمرتين. يبقى الرجل هناك قليلا ويده اليمنى في جيب سترته السوداء، ثم يغادر وهو يعرج. قد تكون الشخصية الغامضة، في المشهد الذي عشته حقا، واحدا من المسرنمين لا غير، أمّا في رواية كاراكس فكان الرجل المجهول هو الشيطان.

6

لولا انشغالي بموعد كلارا الذي مهّد لنوم هانئ لما تيقنت أنّ ما رأيته مجرد صدفة عابرة. وربما لم تكن تلك الرؤى سوى تنبيهٍ على التحول المنشود الذي يرتقي بي إلى مرحلة الشباب متّقد العنفوان في أضعف الاحتمالات كما تؤكد جاراتنا. في تمام السابعة مساء وجدتني واقفا على عتبة منزل الدون جوستابو برسلوه، مرتديا أفضل ما عندي من ثياب ومستحما بعطر فاروون داندي الذي سرقته من والدي. فأنا على عتبات مستقبلي الأدبي كمندوب قراءات ومرافق للأميرات. وكان بائع الكتب وقريبته يسكنان في الطابق الأول من بناية في الساحة الملكية بلازا ريال. استقبلتني خادمة ترتدي زيّ المئزر والقبعة، تشبه الجندي إلى حدّ ما. قابلتني باحترام وقالت بنبرة متكلفة ولهجة كاتيراس الفظيعة:

«لابدّ أن حضرتك السيد دانيال. إنني برناردا، في خدمتك.»

اصطحبتني إلى الداخل بلباقة واحترافٍ رفيعٍ لمهنتها. كانت الشقة التي تشغل الطابق الأول كله متعددة الممرات والصالات والشرفات الفسيحة حتى بدت لي، وأنا المعتاد على بيتنا المتواضع، كنسخة مصغّرة عن متحف الايسكوريال. كما بدا واضحًا أن الدون جوستابو مولع بجمع التماثيل واللوحات الفنية والدينية وحتى النباتات والحيوانات، ناهيك عن الكتب والمخطوطات العريقة وأي نوع من المنشورات النادرة. تبعتُ برناردا مرورا بإيوان مليء بالنباتات المورقة والأزاهير الاستوائية يبدو كحقل زراعي حقيقيّ تتسلل من ثناياه أضواء مزركشة، وفي أجوائه تطوف أنغام بيانو واهنة الوقع. كانت الخادمة تتقدم بين الأوراق الكثيفة وتحرك ذراعيها كمنجل في يدي فلاحٍ صبور. وأنا كنت أتبعها وأنظر حولي، رأيت نحو ست قطط وببغاوين كبيرين تخطف ألوانهما الأبصار، وقالت لي الخادمة إنّ برسلوه أسماهما أورتيغا وغاسيت. وجدتُ معذبتي بانتظاري في صالة عند حدود تلك الغابة الاصطناعية، ترتدي فستانا ضبابيا من قطن سماوي وتجلس قبالة بيانو تحت نور قنديل خافِت. كان في أدائها شذوذ عن اللحن وخطأ في الوزن لكنني أعجبت حقا بتلك السيريناد التي عزفتها. بدت كلارا كإحدى التجليات السماوية بابتسامها المثيرة ورأسها المحني وظهرها المنتصب. ولم يكن من داع أن أقول أو أفعل أي شيء لإثبات وجودي، إذ سبقني شذى العطر بالتعبير عن غايتي. لذا توقفت عن العزف وابتسمت بحياء.

«لوهلة ظننت أنك العم جوستابو» قالت. «لقد منعني من عزف أي مقطوعة لمومبو لأنني أشوهها كليا.»

كنت أعرف شخصا واحدا يدعى بهذا الاسم وهو الراهب النحيل الذي يعاني من حموضة في المعدة ويدرّسنا الفيزياء والكيمياء، فبدا لي الربط بينه وبين الموسيقى في غاية الغرابة.

«أعتقد بأنك تجيدين العزف حقا.» صرُّحت لها.

«كلا. العم جوستابو مهووس بالموسيقى وقد وجد لي أستاذا كي يتحسن عزفي. وهو مؤلف موسيقي شاب وواعد. يدعى أدريان نيري، درس في باريس وفيينا. ينبغي أن أعرّفك عليه. إنه الآن مشغول بتأليف سيمفونية لأوركسترا مدينة برشلونة، بما أنّ عمّه يعمل في المجلس الإداري. إنه عبقري حقا.»

«من العبقري؟ هو أم عمّه؟»

«لا تهزأ يا دانيال. سوف ترى كم يعجبك.»

أجل، بل يعجبني أن أرى آلاته الموسيقية تسقط من الطابق السابع، قلت في سرّي.

«هل ترغب في تناول شيء ما؟» اقترحت كلارا. «برناردا تحضّر أشهى بسكويت بنكهة القرفة.»

أكلنا مثل الباشاوات كل خيرات الله التي حضّرتها الخادمة. لم أكن أعرف كيفية التصرف في لحظات كهذه، لكن كلارا وقد قرأت ما يجول في خاطري طلبت مني قراءة «ظل الريح» على الفور. وانطلقتُ في قراءة ثانية بشغف كبير لتلك الرواية مع أنني حاولت أن أقلّد أصوات الممثلين وهم يلقون الهتافات الوطنية على راديو ناثيونال. واطمأن صوتي بعد أن كان متشنجا في بداية الأمر. ونسيت أنني كنت ألقي الرواية لأنني سُحرت ثانية بها فوقعت في سكتات مفاجئة ولعثمات

بسبب شرودي في بعض الدلالات التي فاتتني في القراءة الأولى. كأنّ الرواية تجلت تحت ضوء جديد مثل بناء تشكيلي يمكن ملاحظته من زوايا مختلفة. قرأت خمسة فصول حتى جفّ حلقي ورنّ رقّاص الساعة أربع أو خمس مرات كأنه أراد أن يذكّرني بتأخر الوقت. أغلقت الكتاب ونظرت إليها فوجدتها تبتسم مرتاحة البال.

«تذكّرني بـ «المنزل الأحمر» نوعا ما» علّقت. «لكن القصة أقل وحشة.»

«لا تنخدعي بالبدايات» قلت. «سوف تتعقد الأمور تباعا.»

«عليك أن تذهب، أليس كذلك؟» سألتني.

«أخشى أنه حان الوقت. لو رجع الأمر إليّ لبقيت ولكن...»

«بإمكانك المجيء غدا إن لم تكن مشغولا» اقترحت كلارا. «ولكنني لا أريد أن ألهيك عن...»

«في السادسة مساء، ما رأيك؟ هكذا يكون لدينا وقت أطول.»

وقع هذا اللقاء في صيف العام 1945، وكان الأول من سلسلة طويلة استمرت حتى السنوات اللاحقة. بعد بضعة أسابيع بات وجودي في شقة برسلوه حدثا يوميا باستثناء الثلاثاء والخميس حين تُجري كلارا دروس الموسيقى مع ذلك الشخص، أدريان نيري. كنت أمضي ساعات طويلة في ذلك المنزل، وتعرفت على كل غرفة وممر ونبتة من غابة الدون جوستابو. شغلتنا رواية «ظل الريح» مدة أسبوعين، ولم يكن من الصعب العثور على شيء نقرؤه، إذ كان لدى برسلوه مكتبة حائط مذهلة. رحت أقرأ عليها من الأدباء الكلاسيكيين قليلي الأهمية وبعض الأعمال التافهة نظرا إلى عدم وجود روايات أخرى لكاراكس. وفي بعض الأمسيات كنا نفضّل الدردشة أو التنزه في الساحة أو المشي حتى الكاتدرائية. وكانت كلارا تعشق الإصغاء إلى غمغمات الناس في ساحة الدير وأصداء وقع الخطى في الأزقة المبلطة. وتطلب مني أن أصف لها الأبنية والأشخاص والسيارات وواجهات المحلات والسوق والأضواء. وغالبا ما كانت ترفق ذراعها بذراعي فأقودها في برشلونة السرية التي لم يكن أحد غيرنا ليراها. وكنا نتوقف دوما لنتذوق القشدة المحلاة ورغوة الشوكولاطة في إحدى محلات شارع بيتريكسول. ولطالما كنا هدفا لفضول الناس، وحدث أكثر من مرة أن يحسبها الخادم «أختي الكبرى». ولكنني لم أعر اهتماما لمن يلمّح أو يفتعل خفة الدم. وفي بعض الأحيان كانت كلارا تبوح لي بأمور في غاية الغرابة، ولا أعلم إن كان مردّ هذا لتأجج العواطف أم لرغبة في الغنج. حدثّتني مرارا عن رجل له صوت أجش يقترب منها أحيانا عندما تكون وحدها خارج البيت. كان ذلك المجهول يوجّه لها أسئلة عن الدون جوستابو وعني أيضا. وذات مرة تلمّس عنقها. كانت هذه الخصوصيات الحميمة تنزل بي العذاب المرير. إذ أعلمتني كلارا ذات يوم أنها طلبت منه أن تتلمس وجهه. فظل الرجل في سكوتٍ ظنّت أنه علامة قبول. ولكن ما إن دنت بيدها على وجهه حتى أبعدها عنه، إلا أنّها استطاعت أن تشعر بجلد جاف يحف أناملها الرقيقة.

«كأنّ له قناعًا من جلد» كانت تقول لي.

«قناع من جلد. يا لخصوبة خيالك يا كلارا.»

لكنها كانت تقسم وتحلف بأنّ إحساسها حقيقي وأنا كنت أصدّقها ويشتعل قلبي غيظا من هذا الغريب الذي يلمس عنقها الطويل في حين لم أكن لأتجرّأ على فعل ذلك. لو أنني تمّعنت في الأمر